

الأدب في سيرة أعلامه :

٧ - تولستوى

[قة من القسم الثوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

بين الجسد واللهو

ودع تولستوى قازان وفي نفسه أنه ودع اللهو والعبث فما إليها من عودة ، وبلغ يأسنايا تلك الضيعة المحبوبة وقد زاده محبة لها أنها غدت من نصيبه ، وإنه ليشعر أنه أصبح مسؤولاً عنها وعن يمشي فيها من الناس ؛ ولقد زاد هذا الشعور لاريب في نفسه الغرم أن يطلق حياة القلب والعبث ... ثم إن فكرة تسيطر على له اليوم وتخلأ جوانب نفسه ،

ومؤداها أن يعمل في جد على إصلاح حال الفلاحين في الضيعة وما جاورها ، فما يليق به أن يذرم فيما فيه من جهل وبؤس . وتستمتع إليه العمة تاتيانا دهشة مبتسمة فما يخرج الأمر عندها عن أن يكون نزعاً جديدة من نزعات الشباب ؛ ولكنه يعود كل يوم إلى هذا الحديث وإنه لأقوى عزماً وأكثر جدلاً ؛ وإن تفكيره في هذا الأمر ليصرفه عن القراءة وعن الموسيقى التي أحبها حباً عميقاً خبرته عمته ؛ وإنها لتجلس إلى البيان تحاول أن تتمتع بلحن مما يحب فما يروعه إلا انصرافه عنها وعن لحنها ليقبل على حديث إصلاح الفلاحين ...

وتمعجب عمته ويزداد عجبها إذ تراه يتخذ لنفسه زياً خامساً به يعتزم أن يلبسه في كل وقت وفي كل مكان لأنه يظهره في مظهر الفيلسوف ؛ ولكن الفتى لا يلبث حتى يخلع هذا الرداء ويلقى به لأن أحد الزائرين لم يمالك نفسه ذات مرة من الضحك من مظهره ، وكره الفتى أن يكون موضع استهزاء ، وهو القى طالما تأثق وتنبل بالثياب ...

وكوليكو . وقد لاحظت أن ثلاثة من هذه الأسماء البديلة تحتوي على نفس المقطع «مون» وفي الحال تذكرت الاسم الذي أبحث عنه وهو «موناكو» ومن هذا ترون أن هذه الأسماء البديلة قد نشأت فعلاً عن الاسم المنسى ، فالثلاثة الأسماء الأولى تحتوي على المقطع الأول «مون» والاسم الرابع يحتوي على المقطع الأخير «كو» أما السبب في هذا النسيان المؤقت فهو أن «موناكو» هي الاسم لأبطلالي «لونيخ» وقد كانت لي ذكريات في هذه المدينة هي التي وقفت حائلاً بيني وبين تذكر الاسم الذي أريد . وعلى هذا فما هو ممكن في حالة نسيان الأسماء لابد أن يكون ممكنًا كذلك في حالة تفسير الأحلام فإذا ابتدأنا من العناصر البديلة فإنه لابد أن نصل في النهاية إلى غرضنا الحقيقي عن طريق سلسلة من الأفكار المترابطة ، كما أنه في استطاعتنا (كما هو الحال في نسيان الأسماء) أن نفرض أن هذه الأفكار التي نشأت عن عنصر الحلم لم يحددها هذا المنصر فحسب بل حددتها أيضاً الدوافع اللاشعورية التي أنتجت الحلم . فإن أمكن هذا فإننا نكون بذلك قد قطعنا شوطاً بعيداً في تبرير طريقتنا في التفسير . الترجمة

محمد جمال الدين محمد

(ينبع)

هذه الأسماء طوعاً من تلقاء ذاته فهنا فقط يكون الشبه وانحاً بين هذه الحالة وحالة تحليل الأحلام . فنصير الحلم كذلك ليس هو ما أبحث عنه وإنما هو عوض عن شيء آخر ، وهذا الشيء الآخر هو ما لا أعرفه وما أسي إلى اكتشافه عن طريق تحليل الحلم . ما ذا أقول إذاً لأتذكر الاسم الذي نسيته ؟ إن ما يحدث هو أنني أوجه التفاني إلى هذا الاسم الذي خطر على بالي عوضاً عن الاسم المنسى ثم أحاول أن أدع أسماء أخرى تتوارد على خاطري في ترابط مطلق ، وبهذه الطريقة أستطيع أن أصل في النهاية إلى الاسم الذي نسيته . ومن المشاهد في مثل هذه الحالات أنني عندما أتذكر هذا الاسم ألاحظ دائماً أن هناك علاقة بينه وبين الأسماء التي تركتها فخطر على بالي عوضاً عنه . فقد حدث لي مثلاً أن حاولت في يوم ما أن أتذكر اسم القطر الصغير الذي يقع على ضفاف الريشيرا والذي عاصته «مونتكارلو» ولكنني لم أستطع على الرغم من تأكدي من معرفته . فأخذت أفكر في كل من أعرف في هذا القطر وما كان لي فيه من علاقات ولكن بلا جدوى . وأخيراً كففت عن التفكير وتركتم أسماء أخرى تتوارد على خاطري طواعية واختياراً . وقد توالى هذه الأسماء بسرعة وهي مونتكارلو نفسها ثم بيدمون ، ومونتفيدو ، ومونتيجرو ،

النبيل الذى أعرفه من وثوق وخبرة ؟ .

ولم يكن بدور بخلافه أن يجد من الفلاحين هذا الجلود ، فما أشد ما كره ما كان فيه من جسد وما أسرع ما أقبل على لموه وعيشه ، وقد نمسا إليه أن أخاه سيرجى يعيش مع عجيبة مغنية عيشة مطلقة من كل قيد فى ضيعة ؛ فحبب إليه عبث أخيه أن يمود هو كذلك إلى عبثه ، فأقبل على الجون واللعب وأسرف فى ذلك إسرافاً شديداً وبخاصة فى غزالة النساء غزالة لا تأثم منها ولا تورع فيها حتى لقد أحدثت أثرها فى بدنه القوى أو كادت ، وحتى لقد عاد الفتى إلى سالف ندمه فانه يكتب فى يومياته فى منتصف شهر يونيو سنة ١٨٤٧ يقول « ما أصعب على من يقع تحت تأثير الشر أن يزيد ما تنطوى عليه نفسه من خير ... هل أبلغ بعد الأمد الذى أجذنى فيه مستقلا عن المؤثرات الخارجية ؟ إن ذلك معناه فى رأى الوصول إلى كمال عظيم ، حيث أنه فى حال الرجل الذى يتخلص من العوامل الخارجية تسيطر الروح على الجانب المادى منه بالضرورة فيبلغ ما يريد ؛ وسأضع اليوم لنفسى قاعدة جديدة وهى أن الاجتماع بالنساء إن هو إلا شر من شرور المجتمع لا بد منه ، وعلى المرء أن يتجنبه ما استطاع ؛ وبمن تتم فى الواقع الشهوة والخنوة والتفاهية فى كل شئ . إن لم تتعلمه من النساء ؟ وعلى من تقع تبعة فقداننا تلك الشاعر الغريزة فينا كالشجاعة والمناعة والبأس والتعبير والعدالة إن لم تقع على المرأة ؟ إن المرأة أشد استجابة من الرجل للمؤثرات ، وكانت فى عصور الفضيلة خيراً منا ، ولكنها الآن فى عصر الفساد والرذيلة قد باتت أسوأ منا وأرذل . »

وتلج إليه العمة ناتيانا ذات يوم بقولها « إنه لا شئ يكون الشاب خيراً مما يكونه ارتباطه بفتاة ذات خلق ؛ ولكن توب حيوته وعرامة فتوته وحبه الاستقلال ، كل أولئك يعيل به عن أن يركن إلى ما تقول ... »

وسيكبر هذا الفتى وقد ذاق حلو الحياة ومرها فيكون له من ذلك مادة لفنه وسيفيد من لموه هذا كما يفيد من جده ، فما ينسى شيئاً مما تطلاله به الحياة ، وسوف ترى نظرتة هذه إلى المرأة سنة ١٨٤٧ وهو فى التاسعة عشرة ، تتجدد فى قصة يكتبها سنة ١٨٨٩ وهو فى الحادية والستين ، وهى قصة كروتزرسنانا . لم يعد للفتى أمل فى إصلاح فلاحيه وأحس أنه بقضى أيامه

وما الذى أتى فى قلب الفتى هذه الرغبة القوية فى إصلاح حال الفلاحين ؟ أمى مجرد نزع من نزعات الشباب حقاً ؟ أم هى خيال ألقاه فى نفسه قراءة قصة حديثة تسمى « القرية » ألفها قصصى يدعى جريجوروفتش وصور فيها حياة الفلاحين ، صورة مؤلة تبعث فى النفوس شعور الرثاء لحالمهم ؟ أم أن مراد ذلك إلى عاطفة عرف بها منذ طفولته وهى أنه يحب أن يرى الناس جيئاً حوله سعداء ؟ الحق أن الفتى ما كان ليستطيع أن يرى مظاهر البؤس من حوله ثم لا يتحرك لما قلبه الإنسانى الرحيم ، وكيف كان يطيق أن يسمع فيما سمع أن امرأة قضت نحبها من الجهد ، وأن المرض يفتك بالناس فلا يستطيعون له دفعا ؟ وكيف كان يطيق أن يرى بعض الفلاحين يحضرون على قدميه سجداً يسألونه القوت ؟ لقد كان ذلك يؤله أشد الألم أو كما يقول « إن ذلك كان يؤلنى كما تؤلنى ذكرى جريمة ارتكبت ولم يكفر عنها . » على أنه يوجب أشد العجب من إعراض الفلاحين عن إصلاحاته ؛ ويألم إذ يرى فى وجوههم الشك والإنكار والعتاد ، وإذ يسمع أنهم يصفون مابنى لهم من أكواخ جديدة بأنها سجون وأنهم يرمون بالمدارس التى افتتحها لأبنائهم والتى كان يعلمهم فيها بنفسه أحياناً ، فنندم أن هذه المدارس تحرمهم من معاونة أبنائهم إيام فى أعمال الزراعة ؛ ويقلب تولستوى كفيه حائراً من أمرهم ، وفى نفسه شعور الغضب ومهارة الخيبة ...

ولا يلبث اليأس أن يصرفه عما شرع فيه ، فينصرف عنه مكرهاً لأنه كان شديد التعلق به ، يدلنا على ذلك ما جاء فى قصة كتبها بعد سنوات قليلة ، هى القصة المسماة « صباح أحد الملوك » فقد صور فيها أميراً يحلم بأن يعلم الفلاحين ويسعدهم ويوفر لهم أقاتهم ، ويصلح رذائلهم التى تنجم من الجهل والتعلق بالخرافات ويمعلمهم يحبون الهدى والحق ؛ وفى هذه القصة يترك الأمير الجامعة ليمود إلى القرية ويكتب إلى عمته برغبته فى إصلاح حال الفلاحين فى ضياعه قائلاً بعد أن يصف مبلغ يؤسهم : « ليس واجبى الواضح القدس أن أعنى بحال هذه الأنفس السبعائة التى سوف يسألنى الله عنها حساباً ؛ ثم ليس من الإجماع أن أجرى وراء أعماط من اللهو والطمع بينا أدعهم لمشايخ أو رؤساءهم عليهم خشن غلاظ ؟ ولم أبحث فى نواحي أخرى عما عسى أن يظهرنى بمظهر الرجل النافع الخبير فى حين أن أسأى هذا الواجب الوضئ »

إذ أرجو منك أن تتدبر في إخراجي من هذا الوضع الكريه حيث أجدني مفلساً يحيط بي الدين من كل جانب .

ويعتزم الفتى أن يلتحق بالجيش في فرقة الفرسان متطوعاً في الحرب ، وأن يترك جامعة بطرسبرج دون أن يتم دراسته فيها كما ترك جامعة قازان من قبل وكانت الحرب التي يريد أن يتطوع فيها هي تلك الحرب الظالمة التي قذفت بها النسا الأحرار المجاهدين في الجمر ، أولئك البواسل الذين رغبوا في الاستقلال عنها وردوا جيشها وقد عصفت العواصف بأنحاء الامبراطورية حتى استمات بالجيش الروسي فجاء لموتها خسون ومائتي ألف من هذا الجيش ، وكانت روسيا تريد أن تطفى نار الثورة في الجمر حتى لا تمتد إلى بولندة وكانت تحت حكمها فتخلع عنها نير الاحتلال ؛ ومن عجب أن يتجه تولستوى إلى التطوع في حرب ظالمة كهذه الحرب وهو الذي سوف يكون في غده من أكبر الساخطين على المدوان وعلى الحرب أيا كانت بواعثها ...

وكان لزاماً على من يتطوع أن يقضى سنتين في صحة الجيش العامل قبل أن يسمح له بحمل السلاح والقتال ، ولكن تولستوى كان يعلم أن يتخذ مكانه في الصفوف قبل انتهاء هذه المدة بما عسى أن يبدى من مهارة وقوة ، وإن خياله ليسهل له كل شيء فإ إن يفكر في أمر حتى يحسبه حقيقة واقعة ، وإنه ليحدث نفسه بأن عمله في الجيش سوف يكسبه خبرة بالحياة والناس ، وسوف يخلق منه شخصاً جديداً ، إذ أنه بهذا العمل ينجو مما يفر به الفراغ والشباب من عبث ولهو ...

ولكنه لا يلبث إلا قليلاً حتى يكتب لأخيه يقول له : « أثبت في كتابي الأخير إليك كثيراً من الالف ، وكان أبرزه ما أشرت إليه من رغبة في التحاق بفرقة الفرسان ، وسوف لا أفل ذلك إلا إذا فشلت في امتحاناتي أو إذا كانت الحرب ذات خطر . »

وجاء الربيع يبعث البهجة والحياة في كل حي ، وطافت بخيال الفتى مجاليه في أسحاره وآماله ، هناك في ضيخته المحبوبة ياستايا بوليانا ، فسرعان ما انطلق من جامعة بطرسبرج كما انطلق قبل من جامعة قازان ، وسرعان ما أبعد عن فكره وخياله العمل في الجيش وفي الوظائف المدنية جميعاً ، ثم أقبل على ياستايا ، وليس في نفسه هذه المرة من عزم إلا تعلم الموسيقى !

المقيد

(يتبع)

في ياستايا عبثاً فصمم على الرحيل منها ، وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٤٨ سافر إلى موسكو حيث قضى ثلاثة أشهر أو أربعة مطلق العنان لا يلو به عن العبث واللهاوشى ، وله من فراغه وشبابه وماله ما يزيد جوحه وعيد في حبال غوايته ؛ ثم سافر الفتى إلى بطرسبرج فدخل جامعها ليدرس القانون ثانية ولا يحصل على درجة علمية تهيئه للالتحاق بوظيفة من الوظائف المدنية .

وأقبل الفتى على الدراسة في جد وعزم كأن لم يعرف اللامب يوماً ؛ وكتب إلى أخيه في فبراير سنة ١٨٤٩ يخبره بما هو فيه من جد ، وينبئه بأنه سيق في بطرسبرج إلى الأبد ؛ ويصف له في كتابه مبلغ ما للحياة في هذه المدينة من أثر في نفسه ، فكل شيء يبعث على الجهد واللب ، وكل امرئ يسمى سميح حتى إن يجد المرء من يصحبه إلى حياة عابثة ، ولن يستطيع المرء أن يحيا هذه الحياة وحده إلى أن يقول لأخيه « أعلم أنك ان تصدق أنى غيرت ما بنفسي وأنت ستقول إنها المرة العشرون ولكن في غير جدوى ؛ كلا ... لقد تغيرت الآن ... وفوق ذلك فأننى اليوم بداخلنى إحساس بأن المرء لا يستطيع أن يعيش بالنظريات والفلسف ، ولكنه ينبغي أن يحيا حياة واقعية ، أعنى أنه يجب أن يسلك سلوكاً عملياً ... وهذه خطوة واسعة نحو التقدم . »

وفي شهر أبريل يجتاز ليو امتحاناً في القانون المدنى والقانون الجنائى بتفوق ملحوظ ؛ على أن ذلك لم يكن في الواقع ثمرة جهد متصل وإنما كان ثمرة أسبوعين استوعب فيهما ما استطاع أن يستوعبه من هاتين المادتين ...

وفي شهر مايو يكتب لأخيه فإذا به يقول في كتابه « أى سير يوشا ... أتوقع أنك سوف تقول إنى أكثر من عرفت ضعف عزيمته ، ولكى أكون أميناً ، ينبغي أن أقول إن الله يعلم ماذا كنت أفل هنا ... لقد جئت بطرسبرج بغير سبب معين ، ولم أعمل هنا عملاً ذا عائدة ، وقصاراى أنى أنفقت مالا كثيراً حتى لقد تورطت في الدين ؛ يا للغباء ! وأى غباء ؟ لن تستطيع أن تصدق كيف يؤلنى ذلك ، وبخاصة تلك الديون التي يجب أن أؤديها بأسرع ما فى وسعى ، وذلك لأننى إن لم أفل فلست أفقد المال لحسب ، بل أفقد منه شرف سميتى . أعلم أنك ستضج بالشكوى ، ولكن ماذا عسى أن أصنع ؟ إن الإنسان يقترب مثل هذه الحاجة مرة في مدى عمره ... وإنى لأركن إلى عطفك